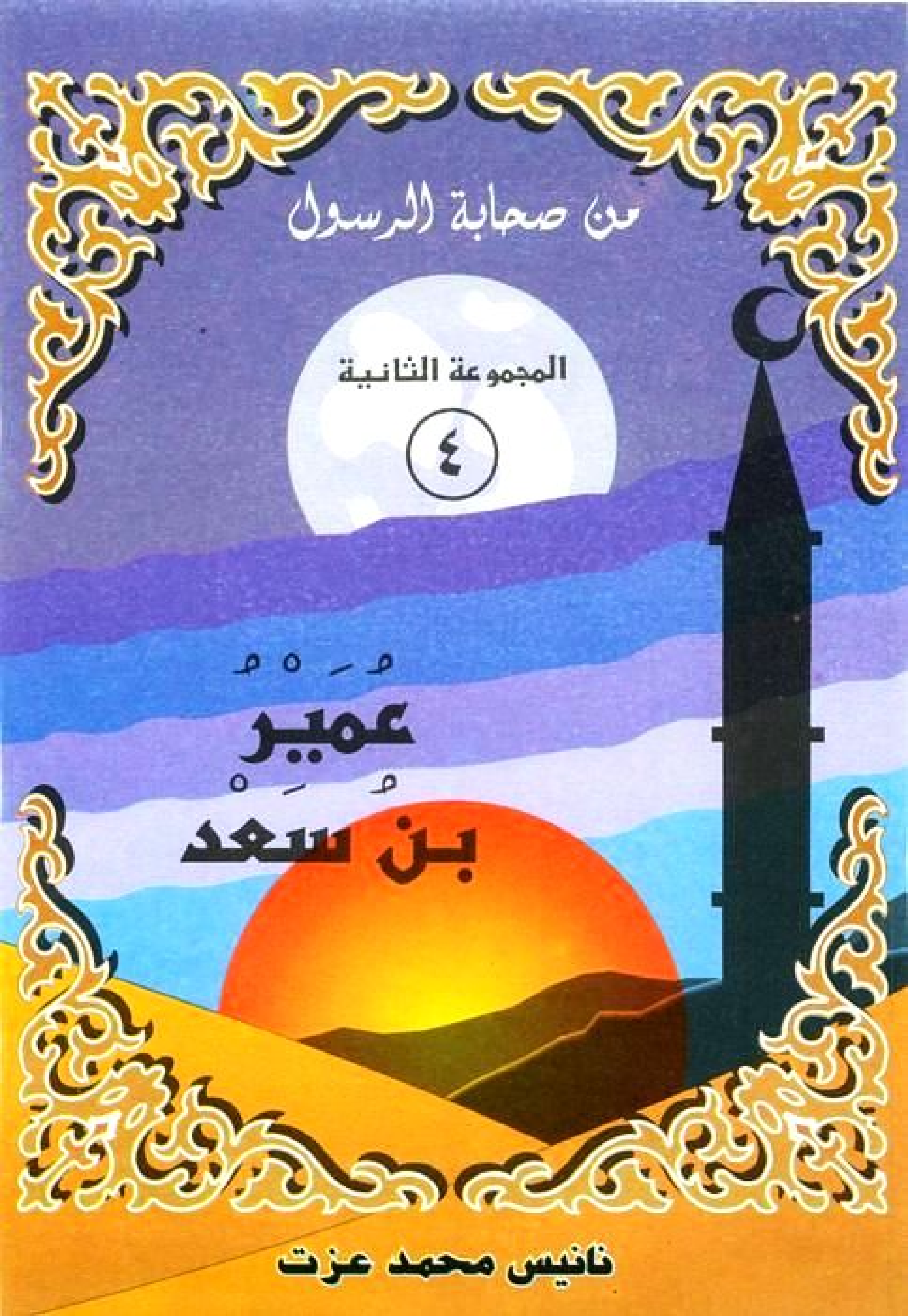

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
٤
عُمَيْرُ
بنُ سَعْدٍ
نانيس محمد عزت

عُمَيرُ بنُ سَعْد

دخل أيَمنُ من بابِ المنزلِ وهو غاضِبٌ وصاح : انظُر يا أبى ماذا فَعلتْ « بسمَة » . لقد أفشَت سِرَّنا ، وأضاعَت علينا عُنصُرَ المُفاجَأة .

قالَ الأبُ مُهدِّئًا أيمَن : اِهدَأ يا أيمَن ، ولا ترفَع صَوتَك فى حُضورِ من هو أكبرُ منك سِنًا . وقل لى فى هُدوء : ماذا فَعلتْ بَسمَة ؟

قالَ أيمَن : تعلَمُ يا أبى أنَّ عيدَ ميلادِ صَديقِنا مُحمَّد ، هو يَومُ الخَميسِ القادِم ، وقد اتَّفقْنا جَميعًا - أنا وبَسمَةُ وأصدِقاؤنا فى النّادى - أن نَحتفِلَ به فى حَفلٍ صَغير ، نُقدِّمُ له فيهِ هَدِيَّةً مُناسِبَة ، ويَكونُ مُفاجأَةً له .

قالَ أبوه : فِكرَةٌ جَميلَة ، وتُعبِّرُ عن شعورٍ نَبيل .

قال أَيْمَن : ولكـنَّ بَسـمَةَ أَفشَـتِ السِّـرّ ، فنَقلتْـهُ إلى أُختِ مُحمَّد ، التي نَقلَتهُ بدورِها إلى مُحمَّـد ، ففَشَـلتِ المُفاجَأَةَ الَّتي أعْدَدْناها .

قالَ أبوها غاضِبا : أحَقًّا حصلَ مِنكِ هذا يا بَسمَة ؟

أَحنتْ بَسمَةُ رأسَها فى خَجَل ، وقالَت : إنَّمـا أَردتُ أن أكونَ أوَّلَ من يُهنِّئهُ بعيدِ ميلادِه ، ولم أكُنْ أعلـمْ أنَّ هذا سيُغضِبُ الجَميعَ مِنِّى .

قـالَ أبوهـا : مـن حقِّهـم أن يَغضَبـوا يـا بَسـمَة ، فقـد أفْسَدتِ عَليهم عُنصُرَ المُفاجَأَة . ثمَّ إنَّ للصُّحبَةِ آدابًا يجِبُ اتِّباعُها ، فيجَبُ ألاَّ تَنقُل الكلاَمَ من جِهَةٍ إلى جِهَةٍ أُخرَى .

قالَ أيمَن : أتَعلمُ يا أبى أنَّ جَميعَ أصدِقائِنـا يَقولـون : إنَّ بَسمَةَ « فَتَّانَة » ؟

سَمِعتْ بَسمَةُ ذَلِك ، فانْخَرطَتْ فى البُكاء ، فقال لها أبوها : لا تَبكى يا بَسمَة . وسأقُصُّ علَيكُما قِصَّـةَ أحَدِ

الصَّحابَة ، هو عُمَيرُ بنُ سَعد ، وأَعتقِدُ أنَّكِ سَتَستفيدينَ مِنها يا بُنَيَّتي :

أَسْلَم عُميرُ وهو في العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِه ـــ وكـانَ مـنْ الأَنْصارِ ـ فنَشأَ على تعاليمِ الإسـلام وترعـرعَ فـي ظلِ آدابه الكريمةِ .

كانَ لعُمَيرِ بنِ سَعدٍ قَريبٌ له غَنِيّ ، اسْمُهُ الجَـلاّسُ بـنُ سُوَيدِ بنِ الصّامِت . وكانَ الجَلاس يَعطِـفُ عليـهِ كَثـيرًا ويُحسِنُ مُعامَلَته .

وذاتَ يَومٍ أعلَنَ الرَّسول ـ صلَّى اللَّه عَليهِ وسَـلَّم ـــ اسْتِعدادَهُ لغَزوِ الـرّوم ـــ فـي غَـزوَةِ تَبـوك ـــ والجَميـعُ يَعلَمون مدَى قُوَّةِ الرّوم ، وبُعدُ المَسـافَةِ إلَيهـم ، وعِظَـمِ المَشَقَّةِ في حَربهـم . فظَهرَت النُّفوسُ علـى حَقيقَتِهـا ، وبدأَ المُنـافِقونَ يَكشِـفونَ عـن أنفُسِـهم وعـن وُجوهِهِـمْ القَبيحَة ، وكانَ من بينِ هَؤلاءِ الجَلاّسُ بنُ سُـوَيد ، فقـد

تَقاعسَ عن الإنْفاقِ فى إعْـدادِ جَيـشِ المُسـلِمين ، علـى الرُّغمِ من تَسابُقِ النّاسِ جَميعًا فى هـذا السَّبيل ، فقـدَّمَ عُثمانُ بنُ عَفّانَ للنّبىِّ ـ صلّـى اللّـه عَليـهِ وسَلّم ـ ألـفَ دينارٍ ذهَبا ، وقدَّمَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ مِـائَتَىْ أوقِيَّـةٍ مـنَ الذّهَـب ، وتَسـابَقتِ النّسـاءُ فى خَلـعِ حُلِيِّهِـنَّ وتَقديمِها للرّسولِ ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ يُشارِكنَ بِها فى إعْدادِ الجَيْش . وعزَّ على عُمَيرٍ أن يرَى قريبَهُ الجَلاّسَ ابنَ سُـوَيْد ـ على الرُّغـمِ مـن سَعَةِ رِزقِـهِ وغِنـاه ـ يَتقـاعَسُ عـن المُشارَكَةِ فى هذا السَّبيل . فسأَلَه عن السَّبَبِ فـى تـأَخُّرِهِ وإحْجامِهِ عن المُشارَكَةِ فيه ، فردَّ عَليهِ الجَلاّسُ بقَولِه :

ـ إنْ كـانَ مُحمَّـدٌ صادِقًـا فيمـا يَدَّعيـهِ مـن النُّبُـوَّة ، فنحنُ شرٌّ منَ الحَمير .

تَساءَلَ أيْمَن : ماذا كان يَعنى بقَولِهِ هذا يا أَبى ؟

قالَ أبوه : كذَّبَ الجَلاّسُ بقَولِهِ هذا مُحَمَّدا ، وزعـمَ أنَّه مُدَّعٍ للنُبُوَّة .

قالَ أيمَن : لقدِ ارتَدَّ بقَولِهِ هذا عنِ الإسْلام .

قالَ أَبوه : وهَذا ما أفزَعَ عُمَيرًا وحزَّ فى نَفسِهِ . فهـا هـو يَسـمعُ قريبَـهُ الَّـذى طالَمـا عَطَـفَ عَلَيْـهِ وأحسَـنَ مُعامَلَتَه ، يُسفِّهُ الرَّسـولَ ــ صلّـى اللّـه عَليـهِ وسَـلَّم ــ ويُعلنُ عن كُفرِهِ بِه . واحْتارَ عُمَـيرٌ مـاذا يَفعـل ؟ أيُبلِّـغُ الرَّسولَ بما عَلِـم ، فيكـونَ قـد أخَـلَّ بـآدابِ المجلـس أم يَتكتَّمَ ما سَمِعَه ، فتكونَ خِيانَةً للدِّينِ ولِلرَّسولِ ــ صلّى اللّه عَليهِ وسَلَّم ــ ؟

قالَتْ بَسمَة : حقًّا إنَّهُ مَوقِفٌ حَرِج ، فكيفَ اسْتَطاعَ أن يَخرُجَ من هذا المَأزِق ؟

قـالَ أبـوه : راعَـى عُمـيْرٌ آدابَ المجلـس ، فلـم يَنقُـل لأَحـدٍ مـا قالَـهُ الجَـلاّس ، وفـى نَفسِ الوَقــت ، أخـبرَ

الرَّسولَ ــ صلَّى اللَّه عَليهِ وسَلَّم ــ بما يُضمِرهُ الجلاَّسُ من فِتنةٍ ونِفاق .

قالَ أيمَن : أهِيَ لُغز ؟ كيفَ أمكَنَهُ أن يُوفِّقَ بين الأمْرَين ؟

ضحِكَ أبوه وقالَ : قالَ عُميرٌ لِلجَلاَّس : لقد قلتَ مَقالَةً إن ذَكَرتُها فَضحْتُك ، وإن أخفَيتُها خُنتُ أمانتى ، وأَهلَكْتُ نَفسى ودينى . وقد قَرَّ رأيى أن أَمْضى إلَى الرَّسولِ وأُخبِرَهُ بِما قُلْت ، فكُنْ على بَيِّنَةٍ من أمرِك .

وهَكَذا نَرَى أنَّ عُمَيرًا أدَّى أمانَةَ الصُّحبَة ، فلم يقُم بدَورِ المُتَسمِّعِ الواشى ، وفى نَفسِ الوَقتِ أدَّى حقَّ دينِه ، فكشَفَ عن نِفاقِ قَريبِه . كما أعْطَى الجَلاَّسَ الفُرصَةَ ليَرجِعَ عن كُفرِه ، ويَستَغفِرَ رَبَّه .

ومَضَى عُميرٌ وأخبَرَ الرَّسولَ ــ صلَّى اللَّه عليهِ وسَلَّم ــ بأمرِ الجَلاَّس . وطَلَبَ الرَّسولُ الجَلاَّسَ وسأَلَه ،

فأنكرَ الجَلاّسُ مَقولَتَه ، بل وحَلفَ باللّهِ كَذِبًا أنّه لَمْ يَقُل ما نُسِبَ إلَيه . فشَكَّ جميعُ الحاضِرينَ فى عُمَير ، وعَزَوا ذلك إلى صِغَرِ سِنّه .

ولكن ظَهرَتِ الحَقيقة ، وتَنزَّلتِ الآياتُ القُرآنِيَّةُ تؤكّدُ صِدقَ عُمَير ، فقد قالَ اللّه تعالى : ﴿ يَحلِفونَ باللّهِ ما قالوا ولقد قالوا كلِمَةَ الكُفرِ وكَفَروا بعد إسْلامِهِم ، وهَمّوا بما لم يَنالوا وما نَقَموا إلاّ أن أَغناهُمُ اللّهُ ورَسولُهُ من فَضلِه ، فإنْ يَتوبوا يَكُ خَيرًا لهم وإنْ يَتوَلّوا يُعذّبْهُمُ اللّهُ عَذابًا أليمًا فى الدُّنيا والآخِرَةِ وما لَهم فى الأرضِ من ولِىٍّ ولا نَصير ﴾ .

فارتعدَ الجَلاّسُ مِمّا سمِع وأعلَنَ توبَتَهُ لِلّهِ تعالَى . وقال : صدقَ عُمَيرٌ يا رسولَ اللّهِ وكنتُ من الكاذِبين ، وأَسألُكَ اللّهَ أن تَقبَلَ تَوبَتى .

فمدَّ الرَّسولُ يَدهُ وأَمسكَ أُذُنَ عُمَير ، وقالَ لَه : وَفَتْ أُذُنُكَ يا غُلامُ ما سَمِعَت وصدَّقَكَ ربُّك .

وظلَّ الجَلاَّسُ يذكُر فضلَ عُمَيرٍ عَليه حتّى آخِرِ أيّامِه ، فكانَ دائِمًا يَقول : جَزاه اللّـهُ عَنّى خَيرا ، فقد أنقَذَنى من الكُفر ، وأَعتقَ رَقَبتى منَ النّار .

قال أَيمَن : إنّهُ حقًّا غُلامٌ ذَكِيّ ، تَصرَّفَ بحِكمَةٍ ورَجاحَةِ عَقل . وماذا عنهُ يا أَبى ، وكيفَ سارَت حَياتُهُ بعدَ ما كَبِر ؟

قالَ أبوه : كانَ عُمَيرٌ بعدَ ما كَبرَ مِثالاً حيًّا للزُّهدِ والتَّقشُّفِ والوَرَع ، ويَظهرُ ذلك جَليًّا فى عَهدِ سيِّدِنا عُمَرَ بنِ الخَطّاب ، ثانى الخُلَفاءِ الرّاشِدين . فقد ولاّهُ إمارَةَ حِمْص بالشّام . وحَزِنَ عُمَيرٌ لِذلك ولم يفرَح ، فهو يُفضِّلُ الجِهادَ فى سَبيلِ اللّهِ عن الوِلايَةِ وتَبِعاتِها .

ولكنَّها المَسئولِيَّةُ الّتى يَجبُ على الجَميعِ أن يُشارِكوا فيها .

وسافَرَ عُمَيرٌ إلى الشّام ، ومَضَى عامٌ لم يَبعَثْ خِلالَهُ بأيَةِ رِسالَةٍ أو أيَّةِ أمْوالٍ لبَيتِ المال . وقَلِقَ الخَليفَةُ عُمرُ ابنُ الخَطّاب ، وبَعثَ إلَيه يَستَدعيه .

وأخَذَ عُمَيرٌ معه كلَّ ما يَملِكُ من مَتاع ، وشَدَّ الرِّحالَ إلى المَدينَة ، فما إنْ وصَلَ إلِيْها حتّى ذَهَبَ لِيُقابِلَ الخَليفَةَ .

وتعجَّبَ الخَليفَةُ من مَظهَرِ عُمَير ، فقد أعْياهُ السَّفَر ، وعَلاهُ الغُبار ، وهَزُلَ جِسمُهُ وضَعُف . وسأله الخَليفَةُ مُستَفسِرا :

ـ أجئتَ من الشّامِ ماشِيًا على قَدَمَيْك ؟ ألَيستْ لكَ دابَّةٌ تَركَبُها ؟

فردَّ عَليــهِ عُمَير : لم يُعطونى د ابَّة ، وأنـا لم أطلُبْهـا منهم .

وسألهُ عمّا رجَعَ به مَعَهُ مِنَ الشّام ؟

قالَ عُمَير : رَجعتُ بكلّ ما أمْلِك . فهذا جِرابى أحمِلُ فيهِ زادى ، وقَصعَتى آكلُ فيها ، وقربة ماء أحْمِل فيهـا وَضوئى وشَرابى ، وعَصاىَ أتوكّأُ عليها .

قالَتْ بَسمَة : أهذه الأَشياءُ فقط هى كلُّ ما يَملِك ؟

قالَ أبوها : إنَّهم أُناسٌ عَشَقوا الزُّهْد ، وفضَّلوا نَعيـمَ الآخِرَةِ على نَعيمِ الدُّنيا .

وعِندَما سأله عما جاءَ بهِ لبَيتِ المال ، ردَّ بقَولِه :

ـــ لقـد ولّيـتُ بعضَ الصّالحينَ أمرَ جبايَةِ الأمْـوال ووَضعِها فى مَواضِعِهـا ، وأَنفَقـتُ مِنها علَى الفُقَـراء ، فلم يبقَ مِنها ما يَزيدُ لأبعَثَهُ إلَيْك .

فسُرَّ عُمرُ لحُسنِ اختِيارِهِ الوالِىَ الصَّحيحَ ، وجدَّد له العَهْد . ولكِنَّ عُميْرًا رفضَ ذَلك ، وفضَّلَ البَقاءَ بأطْرافِ المَدينَةِ مع أَهلِه .

ولم يمضِ على ذَهابِ عُمَيرٍ إلى قَريَتِهِ بأطْرافِ المَدينَة ، حتّى بعثَ الخَليفَةُ عُمرُ بنُ الخَطّابِ إليه من يَختَبِرُه ويَستَوثِقُ من أمْرِه .

فطلبَ من أحَدِ رجاله ، ويُدعَى الحارِثَ أن يَذهبَ إلَيه ، ويَنزِلَ عِندَه كضَيفٍ فى مَنزِله ، فإن رأى عليه آثارَ النِّعمَة فليَعُد إليه ويُخبِرْه ، وإن وَجدَه فى بُؤسٍ شديد ، فليُعطِهِ مِائةَ دينارٍ أعطاها لَه .

ونزلَ الرَّجلُ ضيفًا على عُمَير ، وقد خُصِّصَ له كلَّ لَيلَةٍ قُرصٌ من الشَّعير . ولم تَمضِ عَليهِ بِضعَةُ أيّامٍ عِندَ عُمير ، حتّى جاءَهُ رَجلٌ وقالَ له : لقد أجْهَدتَ عُميرًا وأهلَه . فليسَ لَهم إلاّ هذا القُرصَ الّذى يُؤثِرونَك بِه عَلَى

أنفُسِهِم ، والآنَ وقد أضرَّ بهمُ الجوعُ والجَهد ، فإنْ رَأيتَ أن تتحوَّلَ عَنهُم إلَيَّ فافْعَل .

عِندئذٍ قدَّم الحارِثُ المِائةَ الدينارِ إلَى عُمَير ، الّذى أبَى أن يَأخُذَها . ولكنَّ زَوجَةَ عُمَيرٍ راحَتْ تَحثُّهُ على أخْذِها . فإنْ لم يَنتَفِع هو بها لِنفسِه ، فهُناك الكَثيرونَ من أهْلِ القَريَةِ الّذينَ يَحتاجونَ إلَيها . وبالفِعلِ أخذَ عُميرُ الدَّنانير ، ولكنّها لم تَبِت فى دارِه ، وكانتْ من نَصيبِ الفُقَراءِ وأبناءِ الشُّهَداء .

قالَ أيمَن : ولِماذا أرادَ سَيِّدُنا عُمرُ أن يَختَبِرَه ؟ ألمْ يكنْ يَثِقُ به ؟

قال أَبوه : حاشا لِلّه يا أيمَن . ولكِنّها طَبيعَةُ سيِّدِنا عُمرَ والمُسلِمينَ الأَوائل ، فهُم حَريصونَ دائِمًا على تَقَصّى أمورِ رَعاياهُم ، ويَجِبُ ألاّ يَقصِّروا فيها ، فسيُسأَلونَ عَنها يَومَ القِيامَة .

ونَعودُ لعُمَير ، فنَجدُ أنَّ الخَليفَةَ ما إن سَمِعَ من الحارِثِ عن مدَى فقرِ عُمَيرٍ وزُهدِهِ ، حتَّى طلبَهُ لمُقابَلتِه :

وعِندَما عرف أنَّه تصَدَّق بالمِائَةِ الدِّينارِ كُلِّها ، أمرَ له بِحملِ بَعيرٍ من الطَّعامِ وبثوبَين . وبعُزوفِ القانِع رَفضَ عُميرٌ الطَّعامَ وقال : لقد تركتُ عندَ أهلى صاعَيْنِ من الشَّعير ، وإلى أن نَأكلَهُما يَكونُ اللّهُ سُبحانَهُ وتَعالى قَد جاءَنا برزِقنا . أمَّا الثوبانِ فآخُذُهُما لِزوجَتى ، فقد بَلِىَ ثَوبُها وكادَت أنْ تعرَى .

ولِم يمض على هَذا اللِّقاءِ وقتٌ طويل ، حتَّى لَقِىَ عُمَيرٌ رَبَّه . لقَد مضَى وليس مَعهُ إلاّ نورُهُ وهُداه ، ووَرعُهُ وتُقاه .

وحينَ عِلمَ الخَليفَةُ عُمرُ بنَبأِ مَوتِه ، قال : وَدِدتُ لو أنَّ لى رِجالاً مثلَ عُمَيرِ بنِ سَعد ، أستَعين بهم فى أعمالِ

المُسلِمين .

قالَ أيمَن : لقَد ضَربَ عُميرٌ أفضَلَ مِثالٍ فى الأخلاقِ الحَميدة ، والزُّهدِ والوَرَع .

قالَ أبوه : والآنَ يا بَسمَةُ اذْهَبى إلى أصْدِقائك ، واعْتَذِرى لَهم عن إفْشائِكِ سِرَّهُم ، واحْرِصى دائِمًا على آدابِ الصُّحبَة ، حتّى تَتغيَّرَ فِكرَتُهُم عنك .

قالَت بسمة : بإذنِ اللّه سَأفعَلُ يا أَبى .